

صحيفة ذهبية ممتلئة علما وايمانا وحكمة
وتحقيقا وجلاء للإفهام وشرحا للصدور

لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن تيمية

صححها وعلق عليها

عبد الصمد شرف الدين

ويليها : مطالب سورة البقرة إجمالا

دار ابن القيم

الطبعة الثانية
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م


قاعدة في
أنواع الاستفتاح
في الصلاة
وأنواع الأذكار مطلقاً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هاتف : ٨٢٦٨٣٤٣ - ص.ب : ١٨٦٥ - الدمام - رمز
بريدي : ٣١٩٨٢ - الدمام - جنوب الاستاد الرياضي -
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التصحيح

الحمد لله الذى له الحمد فى الأولى والآخرة ، لا نعبد إلّا إيّاه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلّا هو مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. ونشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله خاتم النبيّين ، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرًا كثيرًا ، دائما أبدا بكرة وأصيلا .

المصنّف

أمّا بعد ، فهذه رسالة أنيقة لآية من آيات الدهر ، وحجّة من حجج الله فى الأرض ، شيخ الإسلام أحمد ابن تيميّة الحرّانى المتوفّى سنة ٧٢٨هـ . فممّا حكى عنه تلميذه الرشيد الحافظ ابن عبد الهادى المقدسىّ فى ترجمة شيخه المعروفة بـ«العقود الدرّيّة من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة» ، طبعة مصر ، سنة ١٣٥٦ ، ص ٤ :

واتّفق أنّ بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق وقال : سمعت فى البلاد بصبىّ يقال له أحمد بن تيميّة ، وأنّه سريع الحفظ . وقد جئتُ قاصدا لعلّى أراه . فقال له خيّاطٌ : هذه طريق كُتّابه (أى مدرسته) وهو إلى الآن ما جاء ، فاقعدْ عندنا الساعةَ يجىء يعبر علينا ذاهبًا إلى الكُتّاب . فجلس الشيخ الحلبىّ قليلا ، فمرّ صبيان ، فقال الخيّاط للحلبىّ : هذاك الصبىّ الذى معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيميّة . فناداه الشيخ ، فجاء إليه . فتناول الشيخ اللوح فنظر فيه ، ثمّ قال : يا ولدى ، امسح هذا حتى أملى عليك شيئا تكتبه . ففعل . فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثا وقال له : اقرأ هذا . فلم يزد على أن تأمّله مرّة بعد كتابته إيّاه ، ثم دفعه إليه وقال : اسمعْه علىّ . فقرأه عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع .

فقال له : يا ولدى ، امسح هذا . ففعل . فأملى عليه عدّة أسانيد انتخبها ثم

قال : اقرأ هذا . فنظر فيه كما فعل أوّل مرّة . فقام الشيخ وهو يقول : إن عاش هذا الصبيّ ليكوننّ له شأن عظيم ، فإنّ هذا لم يُر مثله ، أو كما قال » اه .

قلت : وصدق الشيخ الحلبيّ ، فنبغ ذاك الصبيّ حتّى أصبح « شيخ الإسلام ابن تيميّة » ، فملأ الدنيا بعلمه وتصانيفه . وهو جدير بأن يُسمّى « مجدّد القرن الثامن » بمعنى الكلمة ، فإنّه جدّد الإسلام لهذه الأمّة بعد أن نقّاه ممّا تراكم عليه من البدع المضلّة والآراء الباطلة طوال قرون متوالية .

وقال فى ص ه منها : وقال بعض قدماء أصحاب شيخنا ـــ وقد ذكر نبذة من سيرته :

«أمّا مبدأ أمره ونشأته ، فقد نشأ من حين نشأ فى حجور العلماء ، راشفًا كؤوس الفهم ، راتعًا فى رياض التفقّه ودوحات الكتب الجامعة لكلّ فنّ من الفنون ، لا يلوى إلى غير المطالعة والاشتغال ، والأخذ بمعالى الأمور ، خصوصًا علم الكتاب العزيز والسنّة النبويّة ولوازمها . ولم يزل على ذلك خلفًا صالحًا ، سلفيًّا متألّها عن الدنيا ، صيّنًا تقيًّا ، برًّا بأمّه ، ورعًا عفيفًا ، عابداً ناسكاً ، صوّامًا قوّامًا ، ذاكراً لله تعالى فى كلّ أمر وعلى كلّ حال ، رجّاعًا إلى الله تعالى فى سائر الأحوال والقضايا ، وقّافًا عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه ، آمراً بالمعروف ، ناهيًا عن المنكر . لا تكاد نفسه تشبع من العلم ، ولا تروى من المطالعة ، ولا تملّ من الاشتغال ، ولا تكلّ من البحث . وقلّ أن يدخل فى علم من العلوم من باب من أبوابه إلاّ ويُفتح له من ذلك الباب أبواب ، ويستدرك مستدركات فى ذلك العلم على حُذّاق أهله . مقصوده الكتاب والسنّة .

« ولقد سمعته فى مبادئ أمره يقول : إنّه ليقف خاطرى فى المسألة والشىء أو الحالة التى تشكل علىّ ، فأستغفر الله تعالى ألف مرّة أو أكثر أو أقلّ ، حتى ينشرح الصدر وينحلّ إشكال ما أشكل . قال : وأكون إذ ذاك فى السوق ، أو المسجد ، أو الدرب ، أو المدرسة ، لا يمنعنى ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبى » .

قال هذا الصاحب : « ولقد كنت فى تلك المدّة وأوّل النشأة إذا اجتمعتُ به فى ختمه أو مجلس ذكر خاصّ مع أحد المشايخ المذكورين ، وتذاكروا وتكلّم ـ مع حداثة سنّه ـ أجد لكلامه صَولة على القلوب ، وتأثيراً فى النفوس ، وهيبة مقبولة ، ونفعًا يظهر أثره وتنفعل له النفوس التى سمعته أيّامًا كثيرة بعقبه ، حتّى كان مقالُه بلسان حاله وحاله ظاهر فى مقاله . شهدت ذلك منه غير مرّة » .

الكتاب

ذكر الشيخ ابن عبد الهادى فى «العقود الدرّيّة» نحو ٣٦٥ مصنّفا للشيخ ما بين الكبير والصغير، ثم قال: «وله من الأجوبة والقواعد شىء كثير غير ما تقدّم ذكره يشق ضبطه وإحصاؤه، ويعسر حصره واستقصاؤه» (ص ٦٤). وقال فى أثناء فهرس مؤلّفاته: «وله قواعد كثيرة فى سائر أنواع العلوم، منها قاعدة فى الصفات والقدر ... إلخ» وعدّ أسماء ١٤٨ قاعدة. وذكر فى ضمن تلك القواعد «وقاعدة فى الاستفتاحات فى الصلوة»، وهى التى نقدّمها اليوم للقرّاء الكرام.

عثرت على هذه الرسالة الصغيرة الحجم العظيمة المنفعة ضمن بعض مجلّدات «الكواكب الدرارىّ فى ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخارىّ» لابن عروة الحنبلى وأنا أبحث عن أجزاء التفسير للمصنّف. وكان ذلك أثناء رحلتى المصريّة عام ١٣٦٩ هـ فى خزانة دار الكتب المصريّة ـ عمّرها الله تعالى. فقد وجدت اسمها ثابتًا على لوحة المجلّد الخامس من «الكواكب» هكذا: «رسالة فى أنواع الاستفتاح فى الصلوة للشيخ التقىّ ـ ٥ أوراق». نقلتها إذ ذاك بخطّى، وقد وفّقنى الله تعالى اليوم لطبعها.

بدأ المصنّف بفصل طويل ـ كالمقدّمة للكتاب ـ بحث فيه عن الأذكار مطلقًا، ونوّعها ثلاثة أنواع. فذكر فى مقدّمتها القسم المشتمل على أنواع من الثناء على الله وضروب من محض ذكره تعالى، كالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير. ثمّ قابل هذا النوع بأدنى الأنواع، وهو ما اشتمل عليه من سائر الأدعية وسؤال العبد ربّه شتّى مطالب الدنيا والآخرة، عاجلاً وآجلا. وبيّن وجه تقديم مجرّد الذكر والثناء على الدعاء والسؤال من وجوه عديدة، مستدلًّا عليه بالحديث القدسىّ «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»، وبكون الدعاء مقرونًا بالثناء من غير عكس، وبكون الثناء متعلّقا بالربّ والدعاء بالعبد،

وباشتراك المؤمن والكافر فى السؤال دون الثناء، وغير ذلك. ثم ذكر النوع الثالث، وهو ما يتعلّق بإخبار الإنسان بعبادته لله تعالى، وجعله النوع المتوسّط بين النوعين المذكورَيْن، بكونه أفضل من الدعاء ودون الثناء.

وفى الفصل الثانى تكلّم على الشهادتين، والصلوة على النبيّ صلّى الله عليه وسلم، والحمد، والبسملة، والتكبير. وبيّن المواضع المشروع فيها هذه الأذكار من الصلوة، والأذان، والخطب، والتشهّد، واقتران بعض منها مع بعض، وتقديم بعضها على بعض. وأتى فى ذلك بجوامع العلم ومجامع الحكم توضّح لنا محاسن الشريعة الغرّاء، وتزيدنا علما بمعانيها وأسرارها، وتشرح صدورنا إيمانًا وإيقانا.

وقد خصّ الفصل الثالث بالكلام على أنواع الاستفتاح فى الصلوة، وهو نفس موضوع الكتاب. فأشار إلى أهمّ ما ورد فيه وقسّمه إلى ثلاثة أنواع كما قسّم جنس الأذكار أوّلا سواءً بسواء. وبيّن مراتب كلّ منها مقدّمًا ما اشتمل على الثناء والحمد على غيره، ثمّ الذى فيه إخبار العبد عن عبادته لله، ثمّ ما كان دعاء محضًا. وقد أورد على هذا الترتيب اعتراض المعترض أنّه عكس الترتيب من حيث علوّ الأسانيد، ثمّ أجاب عن ذلك بما شفى وكفى. واستدلّ فى ذلك بدلائل عقليّة ونقليّة يعرف قدرها من استقلّ بالفهم، وارتفع عن حيّز التقليد ونظر بعين الإنصاف. ومعلوم أنّ صيَغ الاستفتاح قد تنوّعت واختلف فى ذلك اختيار الأئمّة. ويحسن هنا إذا طالع القارئ ما كتبه المصنّف — رحمه الله — فى جوابه عن «مسألة فى استفتاح الصلوة، هل هو واجب أو مستحبّ، وما قول العلماء فى ذلك» من «فتاويه» المطبوعة بمصر، ج ١، ص ٧٣. فإنّه — مع وجازته — يزيد القارئ إيضاحًا من وجهة أخرى.

واشتمل الفصل الرابع على المواضع المشروع فيها التكبير والتحميد والتشهد، وبيان مناسباتها: مثل كون التكبير مشروعًا فى الأماكن العالية، واقتران الشهادتين بالحمد تارة وبالتكبير أخرى، وبيان وجه تقديم الحمد على التشهّد، وبقاء الحمد فى الجنّة بخلاف العبادات العمليّة، إلخ.

وختم الرسالة بفصل بديع فى عظم شأن الدعاء الذى اشتملت عليه أمّ الكتاب. وفى ضمنه أسرار وفوائد قيّمة تعرّفنا قدر هذا الدعاء فوق كلّ مطلوب. ويتبيّن لنا كيف

تضمّن سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم حصول الرزق والنصر بدون التعرّض لسؤالهما . فإنّ من هُدى إلى الصراط المستقيم فلا بدّ أن يكون من المتّقين المنصورين الغالبين، وهم الذين قد ضمّنهم الله الرزق والنصر والغلبة .

ثم إنّ الرزق والنصر مطلوبان للإنسان فى هذه الحيوة الفانية فحسب . وأمّا الهداية فإنّها توصله إلى سعادته الأبديّة الباقية بعد الموت، وتوجب له دخول الجنّة يُرزقون فيها بغير حساب، والله يهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم .

وفى ذلك بيان شافٍ لحلّ أعظم مسألة لا تزال تعرض للإنسان منذ خلق، ألا وهى المسألة الاقتصاديّة المعاشيّة . فنجد أنّها تستغرق أفكار معظم أفراد البشر فى شتّى معتركات الحيوة بحيث أصبحت أكبر همّهم ومبلغ علمهم . نرى كأنّها هى المسألة الوحيدة التى لأجلها يعيش الإنسان ويموت، وكأنّه لم يخلق لشىء سواها — سواء فيها الأفراد والجماعات . وهى الهدف الأعظم اليوم فى جميع سياسيّات الدول العظمى والصغرى شرقًا وغربًا، وفى مقاصد حكوماتها وأنظمة تعاليمها وطرق معايشها . ومع ذلك تعذّرت عليهم أشدّ التعذّر، بل صارت أقوى الأسباب لكلّ ما نرى من المعارك العنيفة، والنزاعات الدوليّة، والاعتداءات الغاشمة، والحروب العالميّة، ونقض الأمن وفقدان السلام فى العالم اليوم، بل وسابقًا ولاحقًا .

ومع هذا كلّه فقد حلّ القرآن تلك المسألة المُعيية حلا سهلا مرضيًا بكلمة واحدة، وهى كلمة «التقوى» المضمونة لكلّ من هُدى للصراط المستقيم . فقد تكفّل ربّ العالمين بالرزق الهيّن اللّين لجميع العالمين — أفرادهم وأممهم — بقيامهم بتقوى الله . فقد أعرب القرآن بهذه الحقيقة بكمال الصراحة وتمام الفصاحة حيث لا يدع مجالًا لأدنى شكّ ولا ارتياب . فقال فى حقّ الفرد ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ — [الطلاق ٦٥ : ٢-٣]، وفى حقّ الجماعات ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ — [الأعراف ٧ : ٩٦] . أفليس يكفينا كتاب الله، ومن أصدق من الله حديثا ؟ هذه جمل شرطيّة، ومعلوم أنّ الجزاء لا يتخلّف عن الشرط . فقد ناط الله سبحانه الرزق وفتح بركاته بالإيمان به وبالتقوى .

وفى هذا كفاية لنا وللناس ما يغنى عن ألوف مؤلّفات الاقتصاديّين العصريّين ، وشتّى نظريّاتهم المتضاربة العويصة ــ لو كانوا يعلمون . ولكنّنا تركنا هذه الحقائق الظاهرة الواضحة ونسيناها ــ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُم . وإنّما طريق التقوى تستدعى إيمانًا كاملًا وعمل الصالحات ، ورسوخًا تامًّا فى التوحيد العلمىّ والإرادىّ ، وعلم يقين بالآخرة العظيمة المُقبلة ــ جعلنا الله من أبنائها ، وجنّبنا أن نكون من خالصى أبناء الدنيا .

سيظهر من هذا التعريف بالكتاب جلالة قدره شأنَ جميع تصانيف هذا المصنّف الباهر . وما هذه الرسالة أكثر من ٤٣ صفحة مع ما فيها من الهوامش ، ولكنّ كلّ صفحة منها تحتوى على أسرار الشريعة وحقائق الإيمان ما هو جدير بأن يكتب بماء الذهب . ونحمد الله على تيسيره لنا العثور عليها من بواطن الأسفار المخزونة المكنونة ، ثمّ على توفيقه لإبرازها فى قالب الطباعة لأوّل مرّة ، فهو المرجوّ المسئول أن يهدينا ومن يقرأها أن ننتفع بمعالى علوم كاتبها ــ جزاه الله عنّا أحسن الجزاء ما قرأها قارئ جزاءً غير منقطع ، وهكذا جزاء العلم والتعليم ــ جعلنا الله من حامليه والعاملين به ــ آمين .

هذا وينقص طباعة رسالة «أنواع الاستفتاح» هذه فهرسٌ مرتّب على حروف الهجاء لأهمّ مواضيعها التى يُبحث عنها . فإنّه لا يكمل الانتفاع بالكتاب بدون مثل هذا الفهرس . ولعلّ الله أن يوفّقنا لعمله وإلحاقه بآخر الكتاب ، وإن لم يتيسّر ذلك إلى حين كتابة هذه الأسطر . وما ذلك على الله بعزيز .

وأردفناها بمقالة وجيزة على «بعض ما اشتملت عليه سورة البقرة من تقرير أصول العلم وقواعد الدين» لبعض الفضلاء . وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

كتبه عبده العاجز
عبد الصمد شرف الدين